

الكرامة

كرامة الوطن من كرامة المواطن

رعوف عباس .. نصف قرن من التاريخ

23 يونيو 2008

د. عاصم الدسوقي

في تاريخ الحياة الجامعية في مصر شخصيات فرضت وجودها على المستوى الأكاديمي بشكل خاص وعلى ساحة النشاط الثقافي بشكل عام .. لم يقدمها أحد ، وإنما قدمتها أعمالها .. ولم تتسلل في ذيل واحد من أصحاب النفوذ والجاه والسلطان ، وإنما فتحت لها الأبواب عندما تأكد أن لديها ما تقوله في علم خالص وفي غير منفعة وفي تجرد من الذات لا تتغيا إلا وجه الحقيقة . ولما كانت الحقيقة الحقيقية ضالة العلماء وكانت غائبة دوماً أو تكتنفها خيوط الظلام وتحتاج إلى مصباح ديوجين فقد ظل البحث الدعوب المستمر هدف هذه الشخصيات .

ورعوف عباس من هذا النخبة التي الساحة الأكاديمية منذ فترة بعيدة حين أتم دراسته للماجستير في عام 1966 عن تاريخ الحركة العمالية في مصر 1899 – 1952 وأن ذلك كانت أول عمل أكاديمي يتناول صفحة من التاريخ الاجتماعي لمصر . وعندما نشرها في عام 1968 كانت موضع حفاوة الأوساط الفكرية ومن جانب الحركة النقابية العمالية وخاصة من جناحها اليساري . ومنذ ذلك التاريخ البعيد اتجه رعوف عباس إلى دراسة التاريخ الاجتماعي حتى صار علماً بارزاً فيه فقد أعد رسالته للدكتوراه عن الملكيات الزراعية الكبيرة في مصر بين عامي 1837 – 1914، وكانت أيضاً أول مدرسة جامعية في هذا المجال (1971).

وبعد ذلك انطلق يقبل صفحات التاريخ عن قضايا التاريخ الاجتماعي التي تحتاج لبحث أو لتعميق . وعندما تراكمت الأعمال عليه وضع خريطة لموضوعات جديدة بالبحث شجع طلابه على القيام بها فكانت أطروحات لدرجتي الماجستير والدكتوراه ، فتكونت بفضل مدرسة حقيقية في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي .

وفي إطار تلك الاهتمامات نشر رعوف عباس مجموعة وثائق بريطانية عن الحركة العمالية في مصر 1924 – 1937 ألفت الضوء على ما غمض في تاريخ هذه الحركة . وكتب عن " جماعة النهضة القومية " التي أسسها مريت غالي وإبراهيم بيومي مذكور في مطلع الأربعينات في إطار توجه النخبة المصرية للإسهام في حل المشكلة الاجتماعية التي تنتمي إلى الأرستقراطية في الغالب الأعم لم يكن بإمكانها أن تقدم شيئاً ضد مصالحها الأساسية . كما كتب أيضاً عن حزب الفلاح الاشتراكي 1938 – 1952 الذي أسسه هلال قطب المحامي حيث رأى فيه صرخة في وادي العدم بسبب جمود النظام الاجتماعي .

وعندما اقتحم مجال الترجمة اجتذبت ذات الموضوعات والاهتمامات فترجم كتاب موريس دوب " دراسات في تطور الرأسمالية " (1978)، وترجم كتاب شارل عيسوي المؤرخ الاقتصادي المعروف " التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب " . وراجع ترجمة كتاب بيتر جران " الجذور الإسلامية للرأسمالية " وكتابه " ما بعد المركزية الأوروبية " وقدم للترجمة مؤكداً على أهمية التحرر من المفولات الثابتة والبعد عن المحورة على المركز الأوروبي في دراسة التاريخ ، وترجم كتاب نيللي حنا " تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طافية شاهبندر التجار " وكتب له مقدمة ضافية استهدف منها إزالة تهمة الركود والاضمحلال التي لصقت بالعصر العثماني ، مؤكداً على أن الغوص في أعماق تاريخ مصر العثمانية والبحث عن التفاصيل الدقيقة في وثائق الفترة وخاصة في سجلات المحاكم الشرعية من شأنه في النهاية أن يرفع الغمة عن هذا العصر المظلوم ! . وفي تقديري أن هذه المقدمة الضافية ثمرة جهود طويلة في هذا المجال بدأها أستاذه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذي كان دائم الحديث عن قيمة العصر العثماني وضرورة إعادة النظر فيما كتب عنه من أحكام . وقد نجح رعوف عباس قبل ستة عشر عاماً (1992) في تأسيس حلقة دراسية متخصصة عن العصر العثماني تعقد سنوياً على مدار العام يؤمها المتخصصون والراغبون وطلاب الدراسات العليا الذين شجعهم على دراسة العصر .

وكان من الطبيعي أن تسعى المؤسسات العلمية داخل مصر وخارجها إلى رعوف عباس للإفادة منه . ومن هنا عمل لمدة طويلة وعلى فترات متقطعة مشرفاً على بحوث بمركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر حتى قبل أن يحصل على درجة الدكتوراه ، ثم رأس اللجنة العلمية للمركز . وعندما أدرك أن المركز يتحول إلى إدارة من الإدارات الحكومية لم يتردد لحظة واحدة في ترك المكان باستقالة شهيرة حتى لا يكون العوبة من لا يعلم . وهو في هذا الخصوص يقدم المبدأ على الشخص ولا يتوانى عن لفظ أي شخص من حياته إذا أدرك أنه يتلاعب بالمبدأ . ثم استعانت به دار الوثائق رئيساً للجنة فرز الوثائق وضمها وفي إدارة مركز جديد يختص بنشر مجموعات من وثائق تاريخ مصر في العصر الحديث .

وقد استعان به مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسه الأهرام رئيساً لوحدة الدراسات التاريخية منذ عام 1980 وكانت فرصته لإصدار دراسات متخصصة حول موضوعات محددة استكتب لها باحثين من الشباب أساساً في إطار منهجه في إتاحة الفرصة للدماء الجديدة ومن هذه الإصدارات : " أربعون عاماً علي ثوره يوليو 1922-1953 " ، " الأحزاب المصرية 1922-1953 " ، حرب السويس بعد أربعين عاماً " ، " العلاقات المصرية البريطانية 1951-1954 " .

وقد تلقي دعوات للمشاركة في حلقات دراسية ومؤتمرات في جامعة السوربون ، وجامعات كيل، و إسبن ، وهامبورج ، و فرايبورج بألمانيا ، و جامعات كاليفورنيا ، وستانفورد ، وجورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية وهناك نال عضوية شرفية لتجمع الـ MESA (جمعية دراسات الشرق الأوسط بشمال أمريكا) فضلاً عن التدريس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وجامعة طوكيو كانت حصيلتها دراسة عميقة عن المجتمع الياباني في عصر مييجي ، وترجمة يوميات هيروشيما ، ودراسة بالإنجليزية عن التنوير في اليابان ومصر : دراسة مقارنة . كما أنتجت تلك الدعوات بحوثاً عديدة باللغتين العربية والإنجليزية نشرت في دوريات متخصصة بمصر ودمشق وبيروت واليابان وألمانيا وبريطانيا وفرنسا ومصر .

وفي الجمعية المصرية للدراسات التاريخية نشط رءوف عباس نشاطاً ملحوظاً محاضراً في الموسم الثقافي ومستمتعاً مناقشاً ، وعضواً بمجلس الإدارة لسنوات طويلة تولى فيها مسئولية إصدار المجلة وإعداد الموسم الثقافي والمؤتمر السنوي حتى انتخب رئيساً لمجلس الإدارة . وقد استطاع خلال فترة رئاسته إعادة وضع الجمعية على خريطة النشاط الفكري المسموع في الدوائر الثقافية في مصر .

على أن التكوين العلمي لرءوف عباس لم ينفصل عن القيم الأخلاقية التي تمتع بها وكانت الصدقية التي تحميه من الانزلاق إلى مهاوي التناقض بين القول والعمل حتى لقد استطاع أن يجمع بين نقيضين يندر أن يجمع بينهما إنسان في هذا الزمان وهما العلم والأخلاق . والقريبون منه يعرفون الكثير والكثير من المواقف الشجاعة التي انتصر فيها للحق ورفع الظلم عن الذين لا حيلة لهم . ويكفيه فخراً أنه لم يخن ما تعلمه ، ولم يتصرف ضد ما يعلمه ، ولم يتحول لأداة في يد أحد ، ولم يزايد على فكرة أو مبدأ .

ويا أخي العظيم والصديق القديم منذ عام 1957 حين تقاربنا سوياً في فناء كلية الآداب جامعة عين شمس في شبرا وبين المحاضرات .. دمت عالماً ينشد الحقيقة ، ومعلماً ينير طريق المعرفة لتلاميذه .